الإسلام – الإيمان – الإحسان

المهندس عدنان الرفاعي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ

.. لندرس مسائل الإيمان والإسلام والإحسان في كتاب الله تعالى ، حسب منهج البحث القرآني السليم ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ، لنرى كيف أنَّ المصطلحات الشرعيّة الصحيحة هي تلك المستنبطة من الصياغة اللغويّة للكلمات والجمل الحاملة لها في كتاب الله تعالى ..

مشتقّات الجذر (س ، ل ، م) في كتاب الله تعالى تدور داخل إطار الانقياد والخضوع والخلاص للمنقاد له ، وتعني – مع ذلك – الخلاص من العيب والنقص والأذى .. فأسلم للأمر خضع وانقاد له ..

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : 71]

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : 44]

وأسلم للأمر خلص له في انقياده وخضوعه ..

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء : 125]

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : 22]

فالشيء عندما يكون سَلَمَاً لشيء ، فهو خالصٌ له في انقياده وخضوعه ..

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر : 29]

وسلَّم الشيء يعني خلّصه ، وبالتالي نجّاه ..

﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ ﴾ [الأنفال : 43]

والسلام هو نقيض العيب والنقص ..

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة : 16]

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس : 25]

لذلك .. فالسلام اسمٌ من أسماء الله تعالى الحسنى ، لسلامته جلّ وعلا من النقص والعيب والفناء ..

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر : 23]

واسم ﴿ سُلَيْمَٰنُ ﴾ عليه السلام نراه مشتقّاً من هذا الجذر اللغوي لأنّه – إضافة لانقياده وخضوعه وخلاصه لله تعالى – انقاد وخضع له ما لم يخضع لغيره من البشر ، فقد انقاد له وخضع الجنّ والإنس والطير والريح .....

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل : 17]

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ ﴾ [سبأ : 12]

ومن مشتقّات الجذر (س ، ل ، م) ، الاستسلام والخضوع والمهادنة ..

﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء : 90]

﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾ [النحل : 28]

والسَّلْم هو الخلاص من الحرب والانقياد والخضوع للأمر .. ولذلك يأمرنا الله تعالى أن نجنح للسَّلْم إن جنح الأعداء له ، منقادين وخاضعين لأمر الله تعالى ..

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال : 61]

وبالمقابل يأمرنا الله تعالى ألاَّ ندعو إلى السَّلْم إن كان في ذلك هوانٌ للأمّة و لم يحقّق انقياد الأعداء وخضوعهم لأمر الله تعالى ..

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [محمد : 35]

والاستسلام هو من مشتقّات الجذر (س ، ل ، م) ..

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات : 25 – 26]

والسُّلَّم هو من مشتقّات الجذر (س ، ل ، م) ، فهو السبب الذي يُرتقى به للوصول إلى الشيء بغية إخضاعه للوصول إلى المُراد ..

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ ﴾ [الأنعام : 35]

وكلمة ﴿ سَلِيمٍ ﴾ ترد في القرآن الكريم مرّتين تأتي فيهما صفة للقلب الخالص من الشرك والذنوب ، المنقاد الخاضع لأمر الله تعالى ..

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 88 – 89]

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 83 – 84]

وهكذا نرى أنَّ كلمة ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ صفةٌ تُطلق على المنقادين الخاضعين ..

﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 31]

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 38]

ولذلك فهذه الكلمة ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ تُطلق على المنقادين الخاضعين بجوارحهم وأعمالهم لمنهج الله تعالى وشعائره ..

﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل : 81]

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف : 69]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ نراها تصف لنا حالهم بعد إيمانهم بآيات الله تعالى ، وبالتالي تصف لنا خضوعهم وانقيادهم وتطبيقهم للشعائر التي تحملها آيات الله تعالى .. وكذلك العبارة القرآنيّة ﴿ وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ نراها – أيضاً – تصف خضوعهم لشعائر الله تعالى والعمل بأحكام الآيات التي عملوا بها ..

وهذه الحقيقة تظهر واضحةً جليّةً في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : 84]

فالذي اطمأنَّ وصدّق بقلبه منهج الله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ فإنَّ التوكّل على الله تعالى هو من مقتضيات الانقياد والخضوع لأوامر الله تعالى وشعائره التي يحملها منهجه ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ ..

وبالتالي يستطيع البشر الشهادة على إسلام المرء ، وعلى عدم إسلامه ، لأنَّ الشعائر والأعمال الحسيّة ، التي ينقاد بها ويخضع لمنهج الله تعالى ، هي مسائل مشاهدَة في عالم

الحسِّ الذي نعيشه .. ولذلك نرى أنَّ القرآن الكريم يُصوِّر لنا طلبَ الشهادة على مسألة الإسلام ، فتطبيق الشعائر ، والانقياد بالجوارح ، هي أعمالٌ حسيّةٌ يراها البشر ..

﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 52]

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 64]

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : 111]

.. والدين الذي يرضاه الله تعالى ويقبله ، هو الانقياد والخضوع لشعائر الله تعالى وأوامره ، فمن لم يُترجِم إيمانَه إلى عملٍ حسيٍّ يخضع به لشعائر الله تعالى وأوامره فلن يُقبل منه أيُّ دين ..

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران : 19]

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : 85]

وفي الرسالات السابقة يُبيّن لنا القرآن الكريم أنَّ الشعائر قد ضُيِّعت بعد موت الرسل عليهم السلام ..

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : 58 – 59]

ولّما كان الإسلام هو الانقياد والخضوع لمنهج الله تعالى عبر العمل الحسّي بما يحمله هذا المنهج من شعائر وعبادات ، ولّما كانت الشعائر قد ضُيّعت بالنسبة للرسالات السابقة ، لذلك نرى – في القرآن الكريم – أنّ كلمة ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ لم تُطلق – بالنسبة للرسالات السابقة – إلاّ على الرسل عليهم السلام ، ومن عاصرهم وانقاد معهم لشعائر الله تعالى ..

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : 127 – 128]

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 133]

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 52]

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : 67]

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : 111]

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : 71 – 72]

أمّا في الرسالة الخاتمة ، التي تكفّل الله تعالى بحفظ كتابها ، فإنّ شعائر العبادات موجودة في النصّ المحفوظ (القرآن الكريم) ، ولا يمكن تضييعها ، ولذلك فإنّ صفة ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ تُطلق على المنقادين الخاضعين بجوارحهم من أتباع منهج الرسالة الخاتمة ، فهذه الصفة أصبحت محصورةً في متّبعي منهج الرسالة الخاتمة ..

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : 5]

ولذلك يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يُخاطب الذين أوتوا الكتاب والذين لم يُؤتوا الكتاب (الأميّين) بأن يدعوهم إلى المنهج الذي يستطيعون من خلاله إقامة شعائر الله تعالى ، والعمل بأحكامه ، للوصول بهم إلى طريق الهدى ..

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : 20]

أمّا مشتقّات الجذر (أ ، م ، ن) في كتاب الله تعالى ، فتدور دلالاتها داخل إطار الثقة بالشيء ، والاطمئنان إليه ، والتصديق به ، وسكن القلب تجاهه ..

فأمن فلانٌ فلاناً على الوديعة (الأمانة) ، وثق به ، واطمأن إليه بأنّه سيُعيد هذه الأمانة ، دون الحاجة لإقامة برهانٍ ودليل حسّي عليه ، فالذي أمن (الآمن) يثق ويطمئن غيباً بالمُؤتمن (الموثوق به) ..

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ [البقرة : 283]

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ﴾ [آل عمران : 75]

وأمن فلانٌ ، سكن قلبه وطمأنّ و لم يخف ..

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : 107]

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [النحل : 45]

فالأمْن هو الطمأنينة وسكن القلب وعدم الخوف ..

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : 82]

ولذلك فكلمة : ﴿ ٱلْمُؤْمِن ﴾ هي اسم صفة لله تعالى ، وهذه الكلمة بأل التعريف : ﴿ ٱلْمُؤْمِن ﴾ لم ترد – في كتاب الله تعالى – إلاّ مرّة واحدة كصفة لله تعالى ..

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ [الحشر : 23]

وهكذا نرى أنَّ الإيمان هو الاطمئنان والوثوق والتصديق بمسائل غيبيّة ، ليست حسيّة مُشاهدة تُحيط بها الحواس في عالم المادّة والحسّ كمسائل الإسلام .. ولذلك عندما يُرفَع غطاءُ الغيب عن هذه المسائل ، يُصبح الإيمان بها لا معنى له ، فلا ينفع الإيمان بمسائل رُفع عنا غطاء الغيب ..

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : 158]

ولّما كان الإيمان هو التصديق بمسائل غيبيّة فإنَّ ساحته هي القلب ، فالقلب هو ساحة الإيمان ، والجوارح – كما رأينا – هي ساحة الإسلام .. ولذلك نرى أنَّ القلب يرتبط به الإيمان ، ولا يرتبط به الإسلام ..

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ ﴾ [المائدة : 41]

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [القصص : 10]

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [الحجرات : 14]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [المجادلة : 22]

وبالتالي فالإيمان لا يطّلع عليه إلاّ الله تعالى ، وهو بذلك يختلف عن الإسلام الذي يشهده البشر ، ولذلك يطلب المؤمنون من الله تعالى (الذي يطّلع على حقيقةِ إيمانهم) أن يكتبهم مع الشاهدين ، ولا يطلبون من البشر أن يشهدوا على إيمانهم ، كما هو الحال عندما طلبوا الشهادة على إسلامهم ، فالإيمان مسألة لا يطّلع عليها إلاّ الله تعالى ..

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : 53]

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة : 83]

من هنا نرى الحكمة من أمر الله تعالى بأن لا نقول عن أيِّ أحدٍ (يُلقي إلينا السلام) بأنّه ليس مؤمناً مبتغين بذلك عرض الحياة الدنيا .. فنحن كبشر لا نستطيع أن نجزم بإيمان إنسان ، أو بعدم إيمانه ..

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء : 94]

إذاً .. في هذه الحياة الدنيا (عالم المادّة والأسباب) لا بدَّ من اختبار الإنسان ، حتّى يُترجم حقيقة إيمانه الكامنة في قلبه إلى أعمالٍ حسيّة ، تكون شاهداً عليه يوم القيامة ..

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2]

ولّما كان القلبُ ساحةَ الإيمان ، ولّما كانت أركان الإيمان غيبيّة غير حسيّة ، فإنَّ الإيمان يزيد وينقص .. بينما الإسلام كانقياد لمجموعة شعائر محدّدة مشاهدة ثابتة ، فهو مسألة أُخرى .. هذه الحقيقة نراها في كتاب الله تعالى عبر اقتران مشتقّات الجذر (ز ، ي ، د) بالإيمان ، وعدم ارتباطها بالإسلام دون الإيمان ..

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [آل عمران : 173]

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال : 2]

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ ﴾ [التوبة : 124]

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : 22]

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ [الفتح : 4]

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ۙ ﴾ [المدثر : 31]

ولّما كان القلبُ ساحةَ الإيمان ، ولّما كانت أركان الإيمان مسائل غيبيّة ، لذلك فالإيمان بحاجة إلى تثبيت من الله تعالى .. وعظمة البيان الإلهي تصوّر هذه الحقيقة عبر اقتران مشتقّات الجذر (ث ، ب ، ت) بالإيمان وعدم ارتباطها بالإسلام ، فالشعائر محدّدة وحسيّة وواضحة وثابتة ، وبالتالي لا تحتاج إلى تثبيت ..

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[الأنفال : 12]

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : 27]

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[النحل: 102]

ولّما كان التوكّل على الله تعالى يرتبط بالإيمان ، ولا يرتبط بالإسلام كشعائر محدّدة ومحسوسة ، لذلك نرى في كتاب الله تعالى أنَّ التوكّل على الله تعالى يرتبط بالمؤمنين دون غيرهم ..

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : 122] ، [آل عمران : 160] ، [المائدة : 11] ، [التوبة : 51] ، [إبراهيم : 11] ، [المجادلة : 10] ، [التغابن : 13] ..

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : 23]

وفي الصورة القرآنيّة ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : 84] ، نرى أنَّ التوكّل يرتبط بالإيمان ولا يرتبط بالإسلام .. فالتوكّل على الله تعالى يأتي جواب شرطٍ للإيمان بالله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ ، والعبارة القرآنيّة ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ تعني أنّكم إن كنتم منقادين خاضعين لأمر الله تعالى ، فإنّ إيمانكم بالله تعالى يقتضي توكّلكم عليه ..

ولّما كانت أركان الإيمان غيبيّة وليست حسيّة مُشاهدة ، وساحة الإيمان القلب ، ولا يطّلع على حقيقة الإيمان إلاّ الله تعالى ، فإنَّ حقيقة إيمان الناس لا يشهد عليها إلاّ الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103]

إذاً .. قد يُوجد مسلم خاضعٌ لشعائر الله تعالى الحسيّة المُشاهدة ، ولكن دون أن يطمئن قلبه ودون أن يسكن ويثق بأمور الإيمان الغيبيّة ..

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [الحجرات : 14]

ولّما كان الإسلام هو الانقياد والخضوع الظاهر المُشاهد للشعائر ، نرى أنَّ امرأة لوط عليه السلام التي لم تؤمن بقلبها على الرغم من انقيادها الظاهري أمام الناس ، كانت السبب في وصف بيت لوط عليه السلام بصفة الإسلام دون الإيمان ..

﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الذاريات : 35 – 36]

فالذين أُخرجوا من القرية الهالكة هم المؤمنون ، وهؤلاء المؤمنون (لوط عليه السلام وأهله عدا امرأته) موجودون في بيتٍ يحوي على عنصرٍ غير مؤمن (امرأة لوط) ، ولذلك فهذا البيت بمجموع أفراده تنطبق عليه صفة الإسلام ولا تنطبق عليه صفة الإيمان ، فجميع أفراده (بما فيهم امرأة لوط) منقادون خاضعون للشعائر ، ولكنَّ عدم إيمان امرأة لوط رفع عنه (كبيت) صفة الإيمان ..

وما يجب أن نعلمه أنّ الإيمان مسألةٌ مجرّدة ، يُؤخذ تعلّقها من السياق القرآني المحيط بالكلمات المعبّرة عنها .. فهناك فارق بين ورود الكلمات المعبّرة عن مسألة الإيمان دون تعلّق بالله تعالى ، وبين الكلمات المعبّرة عن مسألة الإيمان المتعلّقة بالله تعالى ، أو تلك المتعلّقة بما هو دون الله تعالى .. ففي قوله تعالى ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : 136]

نرى أنَّ العبارة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ هي خطابٌ للذين آمنوا ، وهؤلاء الذين آمنوا يطلب الله تعالى منهم أن يؤمنوا ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ بالأمور التالية : 1 – ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ ،،، 2 – ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ،،، 3 – ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ ،،، 4 – ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ .. إذاً .. هؤلاء الذين يخاطبهم الله تعالى بصفة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ لم يؤمنوا بالمسائل التي تبيّنها الآية الكريمة ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ ، وإلاّ لما سُبقت هذه المسائل بالأمر الإلهي ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ ..

إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ تحمل خطاباً إلهيّاً للذين اطمئنّوا بأنَّه لا بدّ لهذا الكون من إله ، وهم يتّجهون بفطرتهم النقيّة بحثاً عن حقيقة ما يريده الإله منهم ، ولكنّهم لم يتعرّفوا على حقيقة المنهج الإلهي وما يريده الإله منهم ، فيقول لهم : ما تبحثون عنه ستصلون إليه حينما تحقّقون الأمور التالية ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ ..

والمسألة ذاتها نراها في النصّ التالي ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف : 10 – 11]

.. أمّا ﴿ ٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ فهو من مشتقّات الجذر (ح ، س ، ن) ، ودلالات هذه المسألة تنبع من المعاني التي يحملها جذرها اللغوي ..

حَسُنَ الشيء ، سلم من السوء والنقص والعيب ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : 69] .. وأحسن به سلّمه من السوء وجزاه الخير ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ [يوسف : 100] .. وأحسن الشيء ، جعله بأفضل حالٍ ، سالماً من العيب والنقص ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة : 7] ، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [غافر : 64] .. وحُسن الشيء خيره ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [آل عمران: 148] ، ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : 195] ..

ويكون الشيء حسناً إذا كان خيراً وسالماً من السوء والنقص والعيوب ..

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران : 37] ، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] .. وأحسن تعني أسلم ، بمعنى أفضل ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : 50] ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : 14] ..... والإحسان ، هو أفضل العمل الخالص من السوء والعيب والنقص ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة : 178] ، ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء : 62] .. والمُحسن هو المُخلص بلا سوء ولا نقص ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان : 22] ..

فالمُحسن الذي يعمل بإخلاص بعيداً عن السوء ، إنّما يدفعه ذلك إلى استحضاره لمراقبة الله تعالى له ، فهو يُنفق في السرّاء والضرّاء ، ويكظم الغيظ ، ويعفو عن الناس الذين ظلموه ، ويصفح عنهم ، ويصبر عليهم وعلى ما يصيبه ، ويتّق الله تعالى حقّ تقاته ، ويجاهد في سبيل الله تعالى حقّ جهاده .. وكلّ ذلك لأنّه يستحضر في كلِّ لحظة من حركات حياته رؤيةَ الله تعالى له ..

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : 134]

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : 13]

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 90]

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : 69]

.. وهكذا نرى أنَّ عبادة المُحسن لله تعالى وانقيادَه بجوارحه لشعائر الله تعالى وأحكامه (الإسلام) ، واطمئنانَه وإيمانَه بالغيب الذي ينتظره والذي يريد الله تعالى الإيمان به (الإيمان) .. كلُّ ذلك يتفاعل معه المُحسن من منظار استحضاره لمراقبة الله تعالى له ، كأنّه يرى الله تعالى ، ويرى جزاءَ كلِّ عملٍ يعمله ..

إنَّ علينا أن نتفاعل في فكرنا الإسلامي مع هذه المصطلحات القرآنيّة وغيرها ، وفق ما يحمله كتاب الله تعالى لها ، وليس وفق الروايات والقال والقيل .. فقد رأينا كيف أنَّ صفة الإسلام بمعنى الخضوع الحسيّ واتّباع الشعائر هي صفة انحصرت في متّبعي الرسالة الخاتمة .. ورأينا أنّ صفة الإيمان (المجرّدة) قد تُوجَد عند أيِّ إنسانٍ مهما كان دينه ومذهبه ، حينما يتّجه بفطرته النقيّة مطمئناً بأنّه لا بدّ من إلهٍ لهذا الكون ..... وفق هذه

المصطلحات القرآنيّة الحق نُدرك معنى العبارات القرآنيّة [﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ .....] ..

فالصيغة ﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ ، عبر تعلّق باء الواسطة والوسيلة بالاسم ﴿ ٱللَّهِ ﴾ ، تعني سار في حياته الدنيا مطمئناً واثقاً مُصدِّقاً بالحقّ ، بواسطة استحضار عظمة الله تعالى في نفسه .. فبواسطة استحضار هيبة الله تعالى وثوابه ، يسير في حياته الدنيا مطمئناً متّجهاً نحو ما يريده الله تعالى منه ..